صاحب السمو كما عرفته

« صامت يتأمل ، باسم يسأل .. بهذه الصفات أوجز معرفتى بصاحب السمو .. ولو شئت لأطنبت . . فلى وصاحب السمو من الحديث والمحاورة ما لا أجد متسعاً له على صفحات البعثة ، هذا ولا أخالنى خرجت عن الحقيقة فيما أوجزت ، فما سبق أن أخطأت فى ذاكرتى !!.. »

كنت فى الرابعة من عمرى .. وكنت أتوجه للديوان فى ظهيرة كل يوم لأحصل على (البيزة) من الوالد .. ولقد كان (للبيزة) شأن يذكر آنذاك . . وكان سموه يجلس فى الجانب الطرفى من المقعد الطويل . . ولقد كان هذا مكانه أكثر من ثلاثين سنة على ما أظن .

قال سموه : تعال ياحمد . . فلما قدمت إليه .. قال ما اسمك ؟ قلت حمد .. وكان الأجدر بى ألا أجيب ، فسموه ينادينى باسمى ويسأل عن إسمى — على أن طفولتى تعذر لى هذا التغفيل — ثم يمطرنى سموه أسئلة أخرى متلاحقة : أين كنت ؟ وبماذا تغدّيت ؟ وماهو عشاؤك ؟ ومن تعرف ؟ وأسئلة أخرى محرجة جداً كنت أجيب عليها ببراءة ، وبالأحرى بلاهة ؛ فلقد كان والدى يغمز لى أن أسكت .. ولكن فى نفسى من الكلام والثرثرة ما يجعلنى أتجاهل هذه الغمزات ، خاصة وبعد الإجابة أحصل على (متليك) الذى هو مصرف لأربعة أيام .

هكذا عرفت سموه فى الرابعة من عمرى .. يجلس قبالة الباب ليرى الداخل والخارج . كثير السؤال ، يحرج فى أسئلته أحياناً .. لايضحك ولكن يبتسم .. يبتسم فى كلامه وفى نقاشه ، وماذكرت مرة أنه احتد فى النقاش .

مرت سنوات ومعرفتى بسموه لم تزد عما سبق . فلقد شغلت بالمدرسة حيناً ، وبالتهرب من أسئلته حياء أحياناً .. حتى إذا مامررت بالديوان تبسم وهو ينادينى : حمد .. حمد وبسرعة البرق أكون قد اختفيت عن عينيه . . فلقد ظن سموه أنه سيسأل وأجيب . ولكن هيهات ! .

اغتربت عن الكويت العزيزة عامين فى مصر الشقيقة ، وعدت بعدها إلى الوطن .. فكان أول شىء طلبه الوالد منى أن أقابل سموه وأسلم عليه .. فقصدته فى مكتبه بإدارة المالية ، وكلى حياء من أن سموه سيسأل ، ولا أظن أنى سأجيب .. فلا (الأنة) ولا (الروية) تنتزع منى الجواب.

وفعلا حدث ماتوقعته . فقد سأل سموه فأجبت صراحة بأن فى هذه الأسئلة حرجاً لى .. فلما عجز من أن يحصل على جواب ، غيّر الموضوع وقال تكلم باللهجة المصرية . قلت : لا أجد ماينا سب . قال فإذا أردت .. قلت تفضل : وخاطبته باللهجة المصرية العامية . . ولشد عجبى أن سموه يتكلمها بطلاقة .. فلقد زار سموه القاهرة سنة ١٩٤٤ . وأخيراً عرفت أن طلب سموه هذا يريد به تعريفى أنه أيضاً يعرف لهجة مصر .

وفى مدينة (بومباى) فى (الهند) كان لى شرف الإجتماع بسموه ومحادثته مرات عديدة . فلقد كنت أجتمع بسموه مرتين كل يوم ، أو بعبارة أوضح أكون ضمن من يجتمع بسموه .. وفى هذه المرة كنت أحاول أن أحل لغزاً فى صاحب السمو .. فسموه يبتسم ولايضحك ، وإنى لأفهم من ابتسامته هذه مايدل على أنه العارف بكل مايقوله محدثه .. وكأنه يقول لنفسه بابتسامته هذه : (لقد كنت على صواب) .

ينصت ولايتكلم ، اللهم إلا حين يسأل .. ولقد كنت أحاول أن أصل إلى شىء فى نفسه . فما هو هذا تُرى .. أليس له نهاية ؟؟..

غادر سموه (بومباى) عائداً إلى أرض الوطن .. وأنه لشرف لى أن أكون رفيقه بهذه السفرة . . وعلى سطح الباخرة كان سموه ينظر فى البحر الهادىء بمنظاره الكبير ويتأمل .. وهو فى حاله هذه صامت لاينطق ببنت شفة .. وبعد ساعة من صمته قال : إنها سفينة كويتية تلك التى أراها . فهى سفينة من ؟ ومن هو ربانها ؟.. ومتى ترى غادرت الكويت ؟.. أسئلة كثيرة كانت تتلاحق بمخيلة سموه . ولن يهدأ له بال حتى يعرف سر هذه السفينة ؟ هذا والسفينة على البعد فأنى له أن يعرف ؟ .

هكذا كان سموه ولايزال يريد أن يعرف ويعرف دون

أن يخطىء فى معرفته .. ولقد كان يطل من شرفة جناحه على سطح السفينة ويسأل : من هذا ؟ وما هى حرفته ؟ وبعد ساعات يكون سموه قد عرف أكثر ركاب الباخرة إن لم يكن جميعهم . وفى صبيحة يوم مشرق ، وبعد صمت طويل أمسك بيدى ودخلنا الاستراحة ، وهناك تعرف على مابداخلها من ركاب غالبهم من الأجانب .. وأخذ يجاذبهم الحديث ويناقشهم فى شتى المواضيع .. ولقد بهرنى مالسموه من اطلاع واسع فى مختلف مناحى الحياة الاجتماعية ، فلقد كان يدعم رأيه بالدليل تارة ، وبالأمثال والشعر تارة أخرى وأكثر من هذا كان يستند فى نقاشه إلى كثير من آى الذكر الحكيم والحديث الشريف .. وكنت بدورى أترجم مايدور بينه وبينهم بإنجليزية ركيكة تارة ، وبهندية مضطربة تارة أخرى .. وهكذا كل يوم يجلس سموه صامتاً يتأمل البحر ثم ندخل فى نقاش طويل أخرج منه دائماً مهزوماً .. وفى مرة طال النقاش بيننا وعرض ، وتجادلنا وكل منا يأتى بدليل ، ووصلنا الكويت وكلنا يصر على تصويب نفسه ، وحينذاك اقترح سموه أن يحتكم الوالد بيننا . وحق اللحظة هذه لا أعرف لصالح من صدر الحكم ؟ فلقد غادرت الكويت إلى مصر الشقيقة . ومرة أخرى قابلت سموه صيف هذا العام وسألته عما إذا كان لدى سموه من الحديث مايمكننا نشره فى « البعثة » فأجاب سموه بأن أكتب ما أراه فى حدود الحق وعدم المبالغة .. وقبل ذلك قال للصحفيين اللبنانيين : (دونكم الكويت ، شاهدوها واكتبوا ماترونه) .

هذا هو صاحب السمو كما عرفته من الظروف السعيدة التى جمعتنى وإياه ، صامت يسمع ، يحدث وهو يبتسم ، كثير السؤال ليضيف لنفسه معلومات جديدة ..

أما أعمال سموه فقد عرفتنى به أكثر . . ففى عهده السعيد خطت الكويت خطوة واسعة نحو التقدم والرقى .. ولندع الأرقام تتكلم . . كم من المدارس فتحت ؟ وكم من المستشفيات أنشئت ؟ وكم من الشوارع العظيمة شقت ورصفت ؟ هذا فضلا عن الأعمال الإصلاحية الأخرى . . فلقد ألغى سموه الاحتكارات، ومنع الامتيازات عن الأجانب. وأخيراً أصدر تشريعه التاريخى العظيم الذى كان أملاً يراود مخيلة كل مواطن غيور .. فلقد أصدر سموه تشريعاً بحرية انتخاب المجالس فى الكويت ؛ وهذه خطوة تدل على مقدار ما يكنه سموه لشعبه من احترام وتقدير ..

من رسالة لسموه يعتب فيها على الوالد قال : (إنكم تسرفون فى اللوم وكأن أحدكم هو الذى يعرف مشاكل الماء وندرته . . فثقوا أننا جميعا نسعى لما فيه خير الشعب ورفاهيته) أما ما تضمنته الرسالة من وجهات النظر فلاحق لى أن أطلع عليها أحد .

وقال سموه مرة لوفد من زائريه (لن أكون فى يوم من الأيام عمر الفاروق ، إلا أنى أسعى مافيه طاقتى لأجعل من الكويت بلداً يفخر بها أهلها بقدر ما أنا فخور بهم) وقال سموه أيضاً (بصدر رحب سأتقبل كل اقتراح فيه خير للكويت وأهلها) وخاطب سموه مرة فقال (لن أقدم على عمل بدون مشورة .. فمن استشار أمن مواقع الزلل) .. وحدث مرة عن الأجانب فقال (لن يحصل غريب على امتياز حتى يشاركه نفر من أبناء الكويت) .

هذه هى أحاديث صاحب السمو فى مجالسه .. وليس لنا والحال هذه إلا أن نعمل حكومة وشعباً متكاتفين لما فيه خير الكويت وصلاحها فى ظل صاحب السمو المعظم عبد الله السالم الصباح أدامه الله وأبقاه .

محمد يوسف بن عيسى

وفاء الحيوان . . . ! ؟

امتنع عن الطعام منذ يوم عيد رأس السنة الأسود والنمور والفهود فى حديقة الحيوان بميلانو (إيطاليا) بعد أن توفى مدير الحديقة واسمه (اوجستو مولينار) . فقد فقدت الحيوانات شهيتها للطعام حزناً على المدير الذى كان يمر بها جميعاً ويلاطفها ويتحدث إليها كل يوم عندما يوزع عليها الطعام .

ولما توفى فى يوم رأس السنة افقدته الحيوانات وراحت تزأر وتعوى حزناً عليه ، ثم امتنعت عن الطعام .

وقد صرح موظفو الحديقة بأنهم بعثوا لأرملة المدير ، وهى الأخرى صديق للحيوانات ، يسألونها العون ويطلبون إليها أن تكفكف دموع هذه الحيوانات التى صدها الأسى عن الطعام .